رحمانينـوف
يسرى الأيوبي

ان قامة سرجي رحمانينوف الطويلة الـضامرة، ووجهـه الـصلب العنيد، ورأسه الحليق الشعر تذكر الناس بمحكوم هارب.

لم يره أحد يبتسم أو يحني هامته، ولم ير ذلـك الوجـه الروسـي الحزين يروّح عن نفسه ويخفف ما به من كآبة.. ولكن يديه المعجـزتين كانتا تخلقان أنغاما صدّاحة كالبرونز، يؤلفها في بناء صلد فخـم. وكمـا كان هوفمان أعظم من لوّن موسيقاه بالبهجة، كان رحمانينوف في عصره أعظم مؤلف. لقد قال مرة لرحمانينوف "انني لا أخطط لتأليفي، وبـشكل عفوي يحدث أن يكون النغم جيدا". كان هذا تبسيطا مبالغا به، وان كـان فيه شيء من الصدق. فهوفمان كان أكثـر العـازفين عفويـة فـي إداء الصوت، ولكن رحمانينوف لم يكن يستطيع أن يؤدي عمله بهذا الـشكل. فتحت يديه كانت الموسيقى تصدر بمنطقية لا تقبل الجدل، منسقة بـشكل جميل، ومؤداة بشكل معصوم من الخطأ. ليس فيها بدوات، ولا تقلب في الرأي. وعاما بعد عام كان يعزف بنفس الطريقة. وهو عزف أيده كبـار التكنيكيين في تاريخ العزف على البيانو بيد يسرى قوية. ومن المحتمـل أنه تجاوز بها عزف درايشوك بكثير.

في كل حفلة موسيقية يقيمها كان يلاحظ ايقاعـه الحـاد النبـرات، ورجولته وإحساسه الفخم بالإداء. والى هذا رشاقته الموسيقية حيث تتكوّن الجمل بإنجاز تام أنيق. عندما كان يعزف لحنا لليست أو أغنية لشوبرت،

كان الناس يدركون كم أن معظم المغنين ينقصهم الخيال وحس الموسيقى. فالقليل منهم من استطاع أن يشكل جملة موسيقية بمثل الجمال والكفـاءة والتأثير كما كان يفعل.. كبيرة كانـت أفكـاره الموسـيقية، وطبيعتـه أرستوقراطية فكان يجعل من كل ما يعزفه نبيلا..

ما كانت طريقته بتفسير قطعة موسيقية عملا غريزيا.. كان يـدرس كل قطعة كمؤلف كما هو عازف، وكان يحلل بناءها الموسيقي الأساسي، والعواطف فيها كما في الشكل. وفي كل قطعة كان يهدف الـى اللحظـة التي يبلغ فيها الذروة. أوالعبرة كما كان يدعوها.

قال مرة لصديقة له هي ماريتا شاجنيان، وكان غاضبا من نفسه بعد احدى حفلاته الموسيقية "ألم تلاحظي أنني فقدت العبرة؟ لقد تركت هدفي يفلت مني."

في مناسبة تالية أوضح أن كل قطعة يعزفها متمحورة حول هـدف معين. وكتلة الأصوات جميعها يجب أن تقاس بالعمق والقوة لكل صوت على حدة، وتؤدى بنقاء وتدرج، حتى يصل العازف الـى ذروة الهـدف بشكل يبدو طبيعيا، بالرغم أن انجاز هذا الأمر هو أعلى مراحل الفـن. هذه اللحظة يجب أن تأتي بصوت وتوهج البرق. يجب أن تكون تحريرا لآخر عقدة مادية، ولاخر حاجز بين الحقيقة والتعبير عنها. التأليف نفسه يتطلب هذا الهدف. ويمكن أن يأتي في النهاية أو فـي وسـط القطعـة. ويمكن أن يكون عاليا أو رقيقا، ومع ذلك فالنغم عليه أن يكون قادرا على الإقتراب منه بحساب دقيق واثق، فاذا أفلت منه هذا الهدف فـان جميـع البناء ينهار، والعمل الفني يصبح مائعا، ولا يستطيع أن ينقل الى المستمع ما يجب أن ينقل اليه من أحاسيس.

كان محترفو العزف يتهيبون رحمانينوف، وقدرتـه علـى إنجـاز مقطوعات تبدو مستحيلة بسهولة تامة. وعلى عكس كثيرين من العازفين الكبار كانت لديه يدان ضخمتان بامتداد شديد الإتساع مما جعله يقـبض على الأكورد بوثوق منقطع النظير. وتكنيكه ليس فيه نقطة ضعيفة فـي أي مكان. إن الدقة و الرشاقة التي كان ينساب بها في أعقد المقطوعـات كانت تترك أنفاس زملائه تنقطع احتراما وحسدا. لم يكن في عزفه سطر واحد مغمغم أو باهت اللون. وكما يستخدم المدوس بلباقة جاعلا أصابعه لا قدميه يقومان بالعمل، كان رحمانينوف قابلا أن يحل النوتات بوضوح لا يصدق، وكان يقول: "يجب أن تدقق في كل زاوية، وتأخذ كـل نوتـة على حدة حتى تستطيع تجميعها بسهولة فيما بعد. لم يكـن فـي عزفـه شطحات أو خروج عن الإيقاع ولم يكن عاطفيا في صوره الذهنية، وكان إداؤه متشددا بالنوتة المطبوعة. يجلس بهدوء أمام آلته. وربما لـم يكـن هناك من عازف يملك قدرته على الإنجاز، وسيطرته على النغم بإحكـام لا عيب فيه ولا خلل ولا تشويش. لم يكن لديـه عفويـة هوفمـان ولا فوضوية فريدمان ولا ذهنية بوسيني، ولا لا ثقافة شنابل. وبدل هذا كان عازفا كامل السيطرة في إدائه، عازفا رومنسيا يتجنب بحرص المبالغـة, وتكنيكيا متميزا لا يعزف أبدا لمجرد عرض الذات، رجل متزن، وفنـان متزن بأسلوب طبيعي، وإحساس بشاعرية رجولية تلقائية.

في أواسط العشرينات من القرن العشرين أصبح رحمانينوف معبود الجماهير في العزف على البيانو. وقال الناقد الأمريكي هندرسون الـذي يحترم رأيه في 1930 عن عزف رحمانينوف لسوناتا شوبان B مينور:

"كل شيء كان رائعا محكما جليلا، ولم يبق لنا إلا أن نحمد طالعنـا الذي أتاح لنا العيش في عصر رحمانينوف لنـسمعه بقدرتـه الـسماوية

وعبقريته أن يعيد لنا خلق رائعة موسيقية. كان يوما مـشهودا، عبقريـة تفهم عبقرية أخرى.

لقد سجّل رحمانينوف لشوبان سوناتا B مينور، ولكرايسلر وشوبرت وجريج سوناتا C مينور، ولبتهوفن G ماجور.